لكل من لم يعش الثورة.. هذه فرصة
لمشاهدتها مع صفحات هذا الكتاب

obeikan.com

obeikan.com

تقديم

سنواصل...

في مقدمته لهذا الكتاب، أشار المؤلف إلى أنه كان يرغب في أن يتخصص في الدراما التليفزيونية، وأنني رفضت باعتبار هذا النوع (الفني) ليس مدرجًا في تخصصات القسم. وهذا صحيح.

غير أن أحمد عمَّار، لم يشر، أو ربما لم يدرك وقتها، حجم المعاناة التي كنت أعيشها وأنا أنطق هذه العبارة.

كانت المعاناة، وما زالت، نابعة من حجم التحديات التي كنا -وأنا كعضو في قسم اللغة العربية- نعايشها ونواجهها منذ أربعينيات القرن العشرين (وربما قبلها إذا أدرجنا في هذه التحديات معارك طه حسين ضد التقليد النقدي والفكري).

التحدي الأول، كان اقتحام مجال تجديد الدراسات الإسلامية والبلاغية (مع مولانا الشيخ أمين الخولي، ومحمد خلف الله أحمد، وشكري عيَّاد، ونصر أبو زيد). وللأسف فقد خسرنا هذه المعركة لأسباب لا مجال لذكرها هنا. وإن كانت ثمة محاولات أحدث مع تجديد بعض مجالات البلاغة والنحو مع الزميلين عماد عبد اللطيف، وحسام قاسم.

التحدي الثاني، كان إدخال دراسة الأدب الشعبي في تخصصات القسم، وقد نجحت سهير القلماوي وعبد العزيز الأهواني، وعبد الحميد يونس ونبيلة إبراهيم وأحمد مرسي، في هذا المجال.

التحدي الثالث، كان دراسة الأدب الحديث (أي غير الشعر القديم والنثر القديم) ممثلًا في الرواية والمسرح والقصة القصيرة. وفي هذا المجال نجح تلاميذ سهير القلماوي؛ أي عبد المحسن طه بدر، وعبد المنعم تليمة، وسيد النساج، وأحمد شمس، بل وحتى شوقي ضيف نفسه، في تكريس هذا التخصص ضمن دراسات القسم.

حين انتميت إلى قسم اللغة العربية (١٩٧٥)، كان هناك تحديان: الأول، هو تدريس «موسيقى الشعر» بمعناها الحديث كمادة مستقلة، بالإضافة إلى تدريس العروض أيضًا كمادة مستقلة، بعد أن كانت جزءًا من مادة النحو والصرف والعروض. وساهمت أنا مع أستاذي عبد المحسن طه بدر في إنجاح هذا التخصص في قسمنا ومنه انتشر إلى بقية الجامعات المصرية.

التحدي الثاني الذي ساهمت فيه مع د. عبد المنعم تليمة، ثم الزميل د. حسين حمودة كان هو إدخال تخصص علم اجتماع الأدب الذي كان وقتها غريبًا، حتى على أقسام الاجتماع، وما زال إلى حدٍّ ما حتى الآن، وخاصة مع توقف الجديد الأوربي في مجاله.

ومنذ التحاقي بقسم اللغة العربية، كانت لي في نفس الوقت اهتمامات إبداعية ونقدية وسياسية، فرضت عليّ تحديات سد الفجوة بين التقاليد الأكاديمية، والحياة الثقافية وخاصة في مجالي الإبداع الجديد (ما بعد نجيب محفوظ والشعر الحر) وخاصة شعر العامية.

لم يكن ممكنًا تسجيل رسائل عن أدباء أحياء. نجحنا في كسر هذا القيد، وأنجزت بحوث للماجستير والدكتوراه عن أدباء أحياء بل وحتى عن عمل واحدٍ لأديب حي. وسُجلت رسائل عديدة عن شعر العامية (مثلًا رسالة علاء فاروق عن صلاح جاهين.. وغيرها).

وآخر التحديات التي ما زلنا نواجهها، وسنستمر، فهي ضرورة تحديث كل مناهج التدريس والبحث العلمي في كافة التخصصات،

وذلك من خلال «البينيات» أو تواصل العلوم والمعارف، أو تداخلها، وفي هذا السياق عقدت مؤتمرات متعددة، وأنجزت رسائل للماجستير والدكتوراه (في علم اللغة العصبي لعبد الرحمن طعمة مثلًا)، كما أنجزت دراسات عن الأنتروبيا **entropy**، وإيقاع الشعر العربي، وأخرى عن المداخل الكمية للجمال.. وغيرها. وهذا التوجه نسعى إلى إنجاحه بقوة؛ لأنه مستقبل العلم، كل العلم.

أما أدب الدراما التليفزيونية، فمشكلته أكثر تركيبًا.

حين انطلق شعار أن الرواية هي ديوان العرب في العصر الحديث بدلًا من الشعر، أوضحت أن هذا الشعار غير صحيح؛ لأن عدد قراء الرواية العربية ما زال قليلًا، إذا قارناه بعدد مشاهدي الدراما التليفزيونية، وعليه اعتبرت أن المسلسل هو ديوان الإنسان المعاصر عامة.غير أن المسلسل ليس مجرد نوع أدبي، هو نوع فني يعتمد على الكثير من العناصر الفنية (غير السمعية) مثل التصوير والديكور وأداء الممثلين... إلخ. مما يستدعي مناهج (سيميوطيقية) لدراسة هذه العلامات المتنوعة، ولا يمكن إهمال أي عنصر منها، وهذا يحتاج إلى مهارات لا تدرس في أقسام الأدب في اللغات المختلفة وفي الجامعات المختلفة.

هكذا استدعت عبارة أحمد عمار البسيطة كل هذه الشجون، التي ما تزال قائمة. غير أن إصرار صديقي أحمد عمار على تقديم هذه التجربة المهمة، في هذا الكتاب، يستحق التحية والتقدير؛ لأنه اجتهد بقوة لكي يجعل من منهجه في قراءة المسلسل مشهدًا مشهدًا، وحلقة حلقة، اعتمادًا على النص اللغوي وحده، كافيًا لكي يقدم فهمه للعمل، ولأن يقدم للقارئ المسلسل وكأنه يشاهده.

استعان المؤلف هنا بمجمل خبراته في الحياة، وهي -كما أوضح في المقدمة- شديدة التنوع والثراء. وهذا ما ساعده -عبر لغة واضحة

ودقيقة- على أن يقدم محاولة متكاملة، في التذوق وفي التنظير لهذا النوع (الأدبي- الفني) شديد الأهمية في حياتنا المعاصرة. يكشف أساسياته وخصائصه العامة، من خلال تحليل ذكي وحساس ومبدع، فاتحًا بذلك بابًا لتخصص جديد، أتمنى أن يجد له مجالًا في الدراسات النقدية العربية المعاصرة. وليس فقط في قسم اللغة العربية.

سيد البحراوي

obeikan.com

مقدمة

منذ نعومة أظفاري غرس أبي -رحمه الله- في قلبي حب الدراما... كان مولعا بالأداء وفنونه.. الإلقاء والغناء والأداء المسرحي.. حفر كل ذلك في قلبي.. كانت المرة الأولى التي أقف فيها على المسرح قبل أن أتم عامي الخامس.. وقتها لم أكن قد تعلمت القراءة والكتابة بعد.. تخيلْ معي طفلا في الخامسة من عمره يسهر ليلة بطولها يردد خلف والده كلمة مكونة من صفحتين ثم قصيدة طويلة ليحفظهما عن ظهر قلب حتى يتمكن من إلقائهما في حفل في اليوم التالي.. كان هذا ما حدث معي.. وكان الفضل لوالدي.. قسا يومها عليّ ولكنها القسوة التي زرعت وحان وقت حصاد ما زرعَتْه.

كانت هذه بداية تعلقي بالمسرح.. التقطتني الأعين المدربة الخبيرة وقتها.. لا أتذكر عدد الأعمال الدرامية التي قدمتها بطلا على خشبة المسرح منذ الطفولة وحتى مرحلة الشباب.. بدأت بمسرحة المناهج مرورا بمسرح شكسبير كهاملت، والمسرح الشعري كمجنون ليلى لشوقي، ومأساة الحلاج لصلاح عبد الصبور، والوزير العاشق لفاروق جويدة، والمسرح النثري بمختلف مدارسه من توفيق الحكيم إلى يوسف إدريس إلى سعد الدين وهبة إلى ألفريد فرج إلى علي سالم إلى يسري الجندي إلى محمد سلماوي إلى سعد الله ونوس إلى محمد الماغوط... القائمة تطول.. عرفت كل هذه الأسماء وغيرها وأنا في سن صغيرة وزاد معها شغفي بالمسرح والدراما.

ومع سن الخامسة أيضا كان أول تعامل لي مع شاشة التليفزيون.. اشتركت في برامج الأطفال التي كانت تقدم وقتها.. ألقيت قصائد

مـن الشـعر، وقدمـت بعـض المشـاهد الدراميـة، واسـتمر ذلـك حتـى تخطيـت مراحـل الطفولـة.. تعلقـت بالكاميـرا وأحببتهـا وأحبتنـي. وتعلقت بالتليفزيـون مشـاهِدا ومشـاهَدا.. جذبتنـي الأعـمال الدراميـة منـذ الصغـر.. أسـتطيع أن أقـول إنهـا ربّتنـي، أو أسـهمت في ذلـك عـلى الأقـل.. كان عـلى رأسـها أعـمال عكاشـة.. تعلقـت بقيـم الحـق والخـير والجـمال التـي وجدتهـا في "رحلـة أبـو العـلا البـشري" و"الرايـة البيضـاء" و"ضمـير أبلـة حكمـت" و"عصفـور النـار"، و"قـال البحـر".. أحببـت كحـب عـلي لزهـرة في "ليـالي الحلميـة" وسـامح لهنـد في "الحـب وأشـياء أخـرى".. وأسرني عـالم "زيزينيـا" و"أرابيسـك" و"كناريـا وشركاه"... وغيرهـا.

كان أبي يشـجعني بـكل قـوة لدخـول هـذا المجـال ممثـلا.. كان يخطـط لألتحـق بمعهـد الفنـون المسرحيـة أو معهـد السـينما، ولكـن ذلـك لم يحـدث.. تـوفي والـدي وأنـا في مطلـع المرحلـة الثانويـة.. وعانيـت بشـدة مـن سـنوات فشـل دراسي لم أجـد فيهـا مـن يصفـق لي إلا هـؤلاء.. إنهـم المتفرجـون الذيـن يشـاهدونني وأنـا أقـف على خشـبة المسرح أو المشـجعون في الملعـب.. كنـت لاعبـا لألعـاب القـوى أيضـا في هـذا الوقـت. زادت سـنوات الفشـل، ومـع لحظـة إفاقـة -أو ربـما غفـوة- قـررت النجـاح.. كان يجـب أن أضحـي بالمسرح والرياضـة مـن أجلـه.. في بلادنـا صعـب أن تجمـع بـين الأمريـن، فـما بالـك بثلاثـة!

وكان بديـلي للمسرح والدرامـا أن أحـاول الالتحـاق بكليـة الإعـلام، ولكـن المحاولـة فشـلت.. والتحقـت بكليـة الآداب قسـم اللغـة العربيـة.. وجـدت نفـسي فيـه، فعـالم الأدب هـو العـالم الـذي أعشـقه.. وشـغفي بالشـعر لم يقـل يومـا عـن شـغفي بالدرامـا.. لـن أنسـى ذلـك اليـوم الـذي تخرجـت فيـه وذهبـت إلى أسـتاذي الدكتـور سـيد البحـراوي.. كنـت قـد عقـدت النيـة عـلى أن يكـون تخصـصي في الدراسـات العليـا هـو موسـيقى الشـعر، لكـن شـيئا داخـلي كان مشـدودا لنـوع أدبي آخـر لم أجـده يـدرس في كليتنـا.. سـألته يومهـا: ألا يمكننـي أن أتخصـص في الدرامـا التليفزيونيـة؟

أليست نصا أدبيا يستحق الدراسة؟ وقتها أثنى على الفكرة، ولكنه قال لي إن هذا التخصص ليس موجودا في القسم، ومن ثم فقد حسمت أمري وكان الاختيار موسيقى الشعر.

وطوال هذه الفترة الطويلة كنت أسأل نفسي دوما.. لماذا لا يُدرَس أدب الدراما التليفزيونية؟ لماذا ينظر إليه نظرة استهانة وعدم تقدير؟ لماذا وهو الفن القائم على الكلمة مثل غيره من أنواع الأدب الأخرى؟ لماذا لم يقم مشروع لدراسة تلك الدراما لتظل مركونة على الهامش.. نعم كانت هناك بعض المحاولات لذلك على يد الأستاذين الكبيرين الراعي والقط، ولكنها محاولات لم تمثل مشروعا مكتملا، ولم تؤسس لنوع أدبي يستحق أن يكون مجالا للدرس.. ظل الاهتمام بالدراما التليفزيونية حبيس مقالات هنا وهناك يركز معظمها على الإخراج والتمثيل والموسيقى وعناصر العمل الأخرى دون إعطاء النص نفسه التركيز الذي يستحقه باعتباره الأساس الذي يُبنى عليه العمل الدرامي.

وظلت الفكرة تهاجمني من حين لآخر، حتى وجدتني آخذ القرار وأبدأ في الكتابة.. أخذت أكتب وأكتب حتى خرج هذا العمل بين أيدينا.. لم يكن عندي إلا قرار الكتابة في أول الأمر.. ولكن كيف؟ لم أكن قد حددت بعد.. جاء التحديد يوما بعد يوم أثناء ممارسة فعل الكتابة نفسه.. كان همي منصبا على التحليل.. تحليل بنية ذلك النص الأدبي للوصول إلى سماته وخصائصه الدقيقة.. قررت أن يكون شاغلي الأكبر هو الدراسة التطبيقية.. مللنا من التنظير هنا وهناك دون أن نقتحم النص لنقترب منه ونحلله تحليلا دقيقا.. أو هكذا سعينا لأن يكون. ومع ذلك كان لزاما أن أكتب مهادا نظريا حاولت أن يخرج مكثفا إلى درجة كبيرة لأترك المساحة الأكبر للتطبيق.. كان هذا المهاد بمثابة عرض لأهم السمات التي يجب توفرها في نص الدراما التليفزيونية، مع قليل من فض الاشتباك بين هذا النوع الأدبي وغيره

من الأنواع الأدبية الأخرى التي تقوم على الحكاية كالمسرح والرواية والقصة والسيناريو السينمائي.

بعدها كان يجب عليّ أن أجيب عن السؤال: لماذا أسامة أنور عكاشة تحديدا؟ وقدمت إجابتي وفقا لقناعاتي وما آمنت به، ثم تعرضت للسؤال الآخر: ولماذا عصفور النار تحديدا؟ ولم تختلف إجابتي عن إجابة السؤال السابق، محاولا الاقتراب من العمل ومكانه وزمانه وشخصياته وصراعه.. إلى آخره.. ثم بدأت مشوار التحليل الطويل.

لم يكن هناك نص مطبوع بالطبع، فقد حرمت الدراما التليفزيونية حتى من هذا الحق، إلا نادرا.. ولم يكن هناك إلا المشاهدة.. شاهدت المسلسل مشهدا مشهدا واستمعت لجملة جملة.. كنت أعيد المشهد الواحد عشرات المرات.. أقف على بنيته.. أحاول أن أقترب منها ناظرا إلى المشهد باعتباره لبنة في جسد كبير، أو عنصرا في خلية هي النص كله.. سهرت كثيرا من الليالي وأنا أشاهد وأكتب وأحلل. توصلت إلى عدد كبير من الخصائص التي بنى عليها أسامة أنور عكاشة عمله.. خصائص وسمات وتقنيات وثيمات رصدناها من خلال العمل.. وكان يجب علي في النهاية أن أقدم خلاصتها، وفعلت ذلك لأكتب كلمة النهاية لهذا العمل. ووجدت العمل أمامي محققا حلما كان يراودني منذ سنوات بعيدة.

ولأنني بصدد دراسة نوع أدبي أصبح هو الأكثر انتشارا في السنوات الخمسين الأخيرة، فكل بيت به ذلك الجهاز الذي تطل منه تلك الشخوص علينا كل يوم.. أقول لأنني بصدد دراسة ذلك النوع الأدبي، فقد رأيت أن تكون اللغة التي أكتب بها متسقة مع ذلك الفن.. حرصت على أن أكتب بتلك اللغة التي تصل إلى الكل.. ابتعدت عن تلك اللغة التي توصف بالأكاديمية، وهي ليست كذلك في رأيي، التي تبعد النص عن المتلقي/ القارئ، وتحبسه في درج مغلق أو على الرف كنوع من أنواع الديكور الذي تتباهى به تلك

الطبقة المثقفة المصطنعة. قررت أن أكتب بلغة سهلة واضحة أقرب إلى لغة الإبداع الشفاهي، إلى جانب سعيي لأن تكون لغة جاذبة ممتعة أيضا.. إنها اللغة التي أراها تعبر عني وعن رؤيتي. قررت أن أكتبني أنا وليس شخصا آخر.. ستجد -عزيزي القارئ- صوتي عاليا دوما حتى يراني الجميع داخل نصي هذا.. ذلك على الأقل ما سعيت إليه، وللكل الحق في انتقاده إن أراد، فليس في ذلك غضاضة.

كان الاندفاع كبيرا أثناء الكتابة محفزا بحلم قديم، وأحلام تتجدد في اكتشاف ملامح هذا النوع الأدبي الأكثر انتشارا شئنا أم أبينا.. كان الاندفاع كبيرا لتحقيق هذه الغاية وهذا الحلم، ولهذا فربما أصابني الانحياز حينا أو الزلل حينا آخر، ولا عذر لي في ذلك إلا حداثة التجربة في ميدان لم يمش في طرقاته إلا القليل.

وأخيرا أجدني وأنا أكتب هذه الكلمات أسيرا لكثيرين كان لهم دور كبير في هذا العمل على مدى سنوات عمري.. الشكر موصول لهم جميعا كل باسمه، فهم كثر، ولهم أهدي هذا العمل. وعلى الله قصد السبيل.

أحمد عمار

٢٥ أغسطس ٢٠١٧